٨ـ الوجودية

(Existentialism)

الوجودية مذهب فلسفي أدبي ، وهي قديمة الجذور ، ولكنها انبعثت إلى الحياة في الحرب العالمية الثانية ، ومثّلت وجهاً آخر من وجوه مأساة الإنسان الغربيّ بسبب انهيار إيمانه بالقيم ، وازدياد تشككه أو كفره بالأديان والمثل العليا والعادات والتقاليد ، فالحربان العالميتان اللتان سحقتا ملايين البشر ، وما حدث فيهما من بشاعة وتدمير وانتهاك لحقوق الشعوب والأفراد ، جعلتا الإنسان الغربي يعيش حالة من التمزق والضياع والحيرة ، فإذا به يتشكك في التراث الفكري جميعه ، ويتوهم أن ما كانت تدعو إليه الأديان والعقائد والقيم الروحية الخلقية ما هو في الحقيقة إلا زيف وخداع .

و بسبب هذه الحالة النفسية القلقة المضطربة ، وجدت أفكار قوم من الملاحدة ـ المنكرين لوجود الله تعالى ، الزاعمين أنه لا حقيقة لوجود الخالق ، عزّ وجلّ ، ولا للمثل العليا والقيم الخلقية ـ وجدت تربة صالحة للنمو ، وقد تجمع ذلك كله في بوتقة واحدة خرج منها مذهب فلسفي أدبي سمي بالوجودية[١] .

الآراء الفكرية للوجودية :

الوجودية ـ كما هو ظاهر ـ من اسمها مشتقة من الوجود ، وقد نادت ، بمجموعة من الآراء الفلسفية والفكرية المتعلقة بهذا ، ومن أبرزها :

أـ الوجود سابقٌ للماهية : يقول سارتر زعيم الوجودية : «الوجود يسبق الماهية[٢]» وهذا يعني أن الإنسان يوجد أولا ثم توجد ماهيته ، فهو يُخلق من غير ماهية ، وعلى الإنسان نفسه أن يخلق هذه الماهية ، وأن يمنح حياته معنى ، وأن يتحوّل إلى كائن عاقل ، لأنه في الحقيقة ليس إلا ما يصنع هو نفسه ،أو بكلام آخر : وجود الإنسان هو اختياره لما يريد أن يكون عليه . .[٣] .

---

(١) الأدب وفنونه لمحمد مندور : ص ١٣٨ .

(٢) الوجود والعدم ،لسارتر ، ص٧٠ ، ترجمة عبد الرحمن بدوي (بيروت : ١٩٦٦) .

(٣) المعجم الأدبي ، لجبور عبد النور : ص٢٩٠ .

ولا تسلِّم الوجودية إلا بالوجود ، والإنسان عندهم ـ مع تميّزه بالإدراك ـ ليس بشيء ، ووجوده نفسه عبث ، أي مجرد من كل معنى[١] وهو نفسه الذي يحقق ماهيته ويمنح حياته معنى .

كما ذكرنا ، ووجوده ينحصر في تفكيره ، أو فيما يطلق عليه «الكوجيتو» الديكارتي ، والكوجيتو كلمة لاتينية معناها « أنا أفكر » وهي تُستعمل في الفلسفة رمزاً لعبارة شهيرة اتخذها ديكارت أساساً لفلسفته ، وهي « أنا أفكر إذن فأنا موجود[٢]» .

٢ـ وينبني على حصر وجود الفرد في تفكيره وإنكار وجود أية ماهية مسبقة له ما انتهى إليه سارتر ، زعيمُ الوجودية ، من أنه «لا يوجد شيء خارج هذا التفكير ، ولا سابق عليه ، وبالتالي لا يوجد إله ، ولا توجد ماهية ، ولا توجد مثل ولا قيم أخلاقية متوارثة لها صفة اليقين ، وإنما كل هذا تراث عتيق ، أخذ الناس يتحلّلون منه ، ومن مصلحتهم أن يتحللوا منه حتى يلقوا عن كواهلهم أوزاراً ثقيلة ، وحتى يستطيع الفرد أن ينطلق في الحياة ليحقق وجوده الذي يختلط بما كان يسميه السابقون ماهية الإنسانية . .[٣]» .

ب ـ الحرية الفردية

من أهم أركان الوجودية الحرية الفردية ، فالإنسان يتصرف بحرية في هذا الكون الذي وجد فيه ،ولا يخضع للأديان والأعراف والقيم المتوارثة ، فهذه تشكل قيداً يغلّ من حريته ، ولكنه يخضع لقوانين عقله وما يمليه عليه .

ويرى سارتر «أن الإنسان الحرّ ينظر إلى نفسه باعتباره مؤلّف الأشياء جميعاً ، وعنه تصدر جميع الأشياء . .[٤]» .

---

(١) السابق .

(٢) الأدب وفنونه : ص١٣٩ .

(٣) السابق : ١٤٠ .

(٤)السابق نفسه .

ومن الواضح أن الوجودية تعلي من شأن الفرد ، وتبالغ في تضخيم ذاتيته ، وتجعله سيد الكون ، وهو مصدر التشريع ، باعتباره صاحب تفكير حر ، وهو عندئذ غير محتاج إلى موجِّه ، لا من خالق ، ولا من دين ، ولا من أعراف . .

على الإنسان الوجودي أن يخلق قيمه بنفسه ، يقول سارتر : «منذ اللحظة التي يدرك فيها الإنسان حريته ، ومن اللحظة التي يعرف فيها أنه وحيد في العالم ، يصبح عليه أن يصنع بنفسه قيمه . .(١)» .

وهذه الحرية تمر عندئذ بمرحلتين : مرحلة يتخلص فيها الإنسان من أفكار الماضي مهما كان مصدرها ، ومرحلة يختار فيها أفكاراً جديدة يطبقها ، ويلتزمها ، ويحترمها .

فالوجودية ـ بهذا المفهوم للحرية ـ لا تهدف إلى تقويض المجتمع ، ولا الدعوة إلى الفوضى ، ولكنها تهدف إلى تقويض المتوارث ، وإحلال قيم جديدة محله ، يصنعها الإنسان بنفسه ، حتى تتحقق له ـ في نظرهم ـ الحرية المنشودة .

إنّ الحرية عند سارتر لا تعني الهدم والفوضى كما ذكرنا ، وهي ليست مثل ما عند «أندريه جيد» مثلاً الذي كان يدعو إلى حرية تشبه الفوضى «فهو يدعو تلميذه في مطلع كتابه المسمّى «الغذاء الأرضي » إلى أن يتحرر ، فيخرج من أسرته أو من قريته ، أو من وطنه أو من أي شيء يقيّده لينطلق حراً ، دون أن يحدد له أي هدف يؤمه بعد هذا التحرر(٢)» .

ج ـ المسؤولية : وهي ركن هام من أركان الوجودية ، وذلك أن الحرية التي أعطتها للفرد ليست مطلقة ، وإلا انقلبت فوضى ، إنها حرية مقيّدة بالمسؤولية ، موجهة وفق معطيات العقل البشري وضوابطه وقوانينه ، فالإنسان حر ، ولكنه ينبغي أن يتحمل مسؤولية هذه الحرية ، وأن يبني اختياره لما يختاره عن وعي وإدراك .

---

(١) د . مجاهد عبد المنعم مجاهد ، في كتاب «سارتر مفكراً أو إنساناً» القاهرة :(١٩٦٧) ص٢٥٥ .

(٢)الأدب وفنونه : ص١٤٤ .

والوجودية وجوديتان : والوجودية نوعان :

أـ وجودية مسيحية : ذات طابع صوفي ، ويمثلها «كير كجورد» وهو لاهوتي دانماركي كبير يعدّه بعضهم واضع أسس الوجودية في القرن التاسع عشر[١] ، و«جابرييل مارسيل» الفرنسي الشهير وغيرهما .

وهذه الوجودية لا تنكر وجود الله ، ولكنها تقوم على تصورات منحرفة ، إذ تقوم على التصور المسيحي المغلوط عن «الإنسان الخاطئ» الحامل وزر أبيه آدم ، وعلى بعض آراء «مارتن لوثر» المتمرد على الكاثوليكية ومؤسس البروتستانتية[٢] .

٢ـ وجودية ملحدة : وهي تنكر وجود الله عزّ وجلّ ، ومن أبرز زعمائها «جان بول سارتر» «وألبير كامو» و«جان أنوي» في فرنسا ، و«هايد جر» و«يسبرز» في ألمانيا ، وشيستوف ، وبردياِيف في روسيا .

وهذه الثانية هي الأشيع والأذيع ، وهي تدين بانتشارها وشهرتها للكاتب الفرنسي المعروف «جان بول سارتر» الذي كان روائياً وكاتباً مسرحياً وفيلسوفاً ، وقد استطاع أن يجنّد أدبه لنشر الوجودية والترويج لأفكارها ومعتقداتها .

الآراء الأدبية للوجودية :

يغلب على الوجودية الطابع الفلسفي ، ولم يكن لها في الأدب إلا آراء يسيرة ، أبرزها :

١ـ الالتزام : نبع الالتزام عند الوجوديين من المسؤولية التي تحدّثنا عنها ، فما دام الأديب ـ وهو فرد في المجتمع ـ حراً مختاراً مسؤولاً عما يختاره ، فلا بد أن يكون ملتزماً ، يضع أدبه في خدمة قضايا مجتمعه ، والدفاع عن حرية الإنسان ، ولا بد له أن يتخذ موقفاً سياسياً مما يحدث في العالم ، ولا يجوز له أن يقف على الحياد ، يتفرّج على ما يحدث .

---

(١)الاشتراكية والأدب ،لويس عوض : ص٢٠٦ .

(٢)انظر الأدب وفنونه ،لعز الدين إسماعيل ، ومذاهب الأدب الغربي لعبد الباسط بدر : ص٨٩ .

إن الأديب مطالب ـ بحكم مسؤوليته ـ أن يكون له موقف من أحداث عصره . يقول سارتر محدداً الخطوط العريضة للالتزام في العمل الأدبي :

«لاشك أن العمل الأدبي واقع اجتماعي ، وعلى الكاتب ـ حتى قبل أن يتناول القلم ـ أن يكون على اقتناع به ، وحقّاً عليه أن تتخلل المسؤولية كل جوانب نفسه ، فهو مسؤول عن كل شيء . عن الحروب الكاسبة أو الخاسرة ، وعن صنوف التمرد وأنواع الردع ، وهو شريك الظالمين إذا لم يكن حليفاً طبيعياً للمظلومين ، لا لأنه كاتب فحسب ، بل لأنه إنسان ، وهذه المسؤولية عليه أن يحياها وأن يريدها ، وبالنسبة له يجب أن تكون الحياة والكتابة شيئاً واحداً ، لا من أجل أن الفن إنقاذ للحياة ، ولكن لأن الحياة تعبير عن مشروعات ، وقد اختار هو الكتابة مشروعاً له . .[1]» .

ولقد أثار سارتر في كتابه «ما الأدب»؟ . .ثلاثة أسئلة هامة تعد الأضلاع الثلاثة لمثلث الالتزام عند سارتر وغيره من الوجوديين ، وهذه الأسئلة هي :ما الكتابة ؟ولماذا نكتب ؟ولمن نكتب؟

الكتابة ليست ترفاً ، بل هي وظيفة اجتماعية ، والكاتب لا يكتب لنفسه بل لقارئ لا يتحقق الوجود الأدبي إلا به ، يكتب للمجتمع ، ولذلك لا يمكن له أن يتخلى عن قضاياه ، إذ هو عضو في هذا المجتمع ، ولا بد أن يكون عضواً فاعلاً منتجاً لذلك الجمهور ، ملتزماً قضاياه . .[2] .

والالتزام عند الوجوديين يكون باختيار الكاتب ، وهو نابع من إحساسه بالمسؤولية ، والحرية التي اختارها ، وليس مفروضاً عليه من جهة أو حزب . كما هو حال الالتزام عند الشيوعيين .

ولكن سارتر أعفى الشاعر من الالتزام ، وشبه الشّعر بالرسم والنحت والموسيقا ، وحكم عليها جميعاً بأنها خارجة عن دائرة الالتزام .

---

(١) انظر «في النقد التطبيقي والمقارن» محمد غنيمي هلال : ص٧١ .

(٢)ما الأدب؟ لسارتر ، ترجمة محمد غنيمي هلال .

يقول : «إن ميدان المعاني إنما هو النثر ، فالشعر يعدّ من باب الرسم والنحت والموسيقا . . ولن تستطيع بحال أن تحلم بجعل الشعر التزامياً ، وهذا حق . .» .

ويعلّل سارتر ذلك بأن الحقائق هي التي تعبّر عن مضمونات الالتزام ، وليست غاية الشعراء استطلاع الحقائق أو عرضها . كما أن الشعراء يستعملون اللغة بشكل مختلف عما تُستعمل عليه في النثر ، إن الشاعر «لا يستخدمها بالطريقة نفسها ، بل لنا أن نقول : إنه لا يستخدم الكلمات بحال ، ولكنه يخدمها ، فالشعراء قوم يترفعون باللغة عن أن تكون نفعية . .[(١)]» .

٢ـ **فضّلت الوجودية المضمون** على الشكل في العمل الأدبي ، إن وظيفة الأديب الوجودي ليست خلق الجمال فحسب ، بل له وظيفة اجتماعية وسياسية وخلقية ، وإن انغماس الكاتب في الشكلية ، واهتمامه الزائد بالقالب الفني لعمله الأدبي يمكن أن يضرا بالأدب ، وينحرفا بشعور القارئ عن الغاية المنشودة .

٣ـ تتردد في **الأدب الوجودي معان معينة** ، نابعة من فلسفتهم التي ذكرناها عن الإله والكون والحياة والإنسان ، وأبرز هذه المعاني هي : القلق ، والهجران ، واليأس ، والتمرد على الكون والإله ، وعبثية الحياة ولا معقوليتها ، والضياع في عالم لا يحسّ فيه الوجودي بأي انتماء ، ومجهولية الهوية ، والتغرّب في اللاوطن ، والسأم ، والخوف من المجهول الغامض ، وغير ذلك من أضراب هذه المعاني والأفكار[(٢)] .

وهذه معان طبيعية لا بد أن تتولد عند إنسان فاقد للإيمان بكل شيء ، لا يعرف له هدفاً في هذه الحياة ، ويرى الوجود عبثاً ، والموت عبثاً ، لا يعرف من أين جاء؟ ولا ما غايته في هذه الحياة؟

---

(١)السابق : ص١٣ .

(٢)انظر كتابنا «الحداثة في الشعر العربي المعاصر» ص٦١-٦٨ ، وانظر نماذج لهذه المعاني في شعر الشعراء الذين تأثروا بالوجودية في كتاب «تيار رفض المجتمع» لسعد دعبيس : ص١٤٩-١٦٩ .

ومن كان ـ كالوجودي ـ مؤمناً أن الكون لا معنى له لا بد أن يولد عنده القلق ، والوحدة ، وتمزق الطمأنينة واليأس . .[1]

٤ ـ اهتمَ الوجوديون **بفن الرواية والمسرح** بشكل خاص ، وذلك لأنها أقدر على إبراز أفكارهم ، والتعبير عن التزامهم الأدبيّ ، وقد خلف الوجوديون عدداً كبيراً من الروايات والمسرحيات التي جنّدوها لخدمة فلسفتهم والترويج لها .

ومن أبرز هذه الأعمال مسرحيات : الذباب ، والأيدي القذرة ، والباب المغلق ، ورواية الغثيان لسارتر ، ورواية الطاعون ، وكاليجولا ، والغريب ، والسقوط وغيرها لألبير كامو .

ومن الواضح أن الوجودية فلسفة تريد أن تحل محلّ الأديان والعقائد والقيم المتوارثة ، لأن هذه ـ في نظرها ـ ليست من صنع الإنسان وإنما هي مفروضة عليه ، آتية إليه من خارج ، وهي لذلك تسترقه .

وهذه الوجودية التي هي أقرب إلى الفلسفة ، قد جنّدت الأدب أحسن تجنيد لخدمة مبادئها ، سواء في كلامهم على وظيفته ، أو في المعاني والأفكار التي طرقوها في إنتاجهم على نحو ما بيّنا .

(١) معجم المصطلحات الأدبية ، لإبراهيم فتحي : ص٤٠٤ .

obeikandl.com

عاش الإنسان الغربي حالة من الضياع والفراغ الروحي ، بسبب ما مرّ به من أزمات اجتماعية وسياسية وفكرية ، مما جعل قيم الدين والأخلاق بل التراث الإنساني كله يهتز في عينيه ، ويصبح موضع شك ، وقد أفرزت هذه الحالة من القلق والشك مجموعة من المذاهب والتيارات الأدبية والفلسفية ، ومنها الوجودية ، التي مثلت ـ كما رأيت ـ فلسفة جيل ضائع منكوب .

والوجودية تخالف تصوراتنا الدينية والعقدية : فكرياً وأدبياً .

١ ـ التصورات الفكرية

حملت الوجودية مجموعة من القيم السقيمة الباطلة :

أ ـ الإلحاد :

تحول الشك في التراث الروحي والديني إلى كفر بهذا التراث كله ، وإلى إنكار لوجود الخالق عزّ وجلّ ، وجحد للأديان والعقائد والقيم السابقة جميعاً .

والحق أن الكفر بالله ـ عزّ وجلّ ـ الذي نادت به الوجودية الملحدة ـ وجودية سارتر بشكل خاص ـ ليس شيئاً جديداً ؛ فمنذ أقدم الدهور وجد الكفر والإلحاد ، وفي الفكر الغربي تسمع عن فلاسفة يزعمون ـ جلّ شأن الله ـ «أنّ الله خرافة» حتى قال واحد مثل فولتير : إن الله خرافة ، ولكنها خرافة نافعة ، ولو لم يكن الله موجوداً لوجب على البشر أن يخترعوه ، وذلك باعتبار أن وجوده يعتبر منبعاً لعدة مبادئ ضرورية لحياة الفرد والمجتمع .

ولكن الوجودية لا تسلّم بضلال فولتير وأمثاله ، بل توغل في هذا الضلال أكثر ، فتزيد على إنكار وجود الخالق ـ عزّ وجلّ ـ فتقول : «إنه خرافة ضارة ، أخذت البشرية تتخلص منها ، ولا بدّ أن تفعل . .[١]» .

فالوجودية ـ إذاً ـ في أصل فلسفتها ـ تقوم على فكر باطل ، وتصورات ضالة ، تكفر بالأديان والعقائد السماوية كلها .

---

(١) الأدب وفنونه : ص١٤٠ .

وإذا كانت هذه هي الوجودية الملحدة التي مثلها ـ كما عرفت ـ جان بول سارتر ، وألبير كامو ، وهايد جر ، وأمثالهم ، فإن الوجودية الأخرى التي زُعم أنها وجودية مسيحية ، هي كذلك وجودية ضالّة منحرفة ، وإذا كانت لم تنكر وجود الخالق ـ عزّ وجلّ ـ فإنها ـ في مقابل ذلك ـ قامت على تصورات تمثل تحريفاً للعقيدة المسيحية ، قامت على فكرة واضحة البطلان ، وهي فكرة «الإنسان الخاطئ» التي لا تُقبل في ميزان الشرع ولا في ميزان العقل ، إذ هي تتحدّث عن خطيئة متوارثة يحملها الإنسان من أبيه آدم الذي تدّعي النصرانية المحرفة أنه أخطأ وخالف أمر الله تعالى ، وأكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها .

يقول اللاهوتي الدانمركي الشهير «كيركيجارد» ـ الذي يعدّه بعضهم أبا الوجودية ـ معبّراً عن هذا التصور الباطل «الناس جميعاً يرثون خطيئة واحدة إلا أنا ورثت خطيئتين : واحدة من أبينا آدم ، والأخرى من أبي ميخائيل يدرسن كيركيجارد . . ، فقد كان أبوه ـ الذي تتالت عليه المحن ـ يجدِّف على الله ، وكان تجديفه هذا ـ كما اعتقد ـ سبباً في لعنة السماء التي حلّت به وبأولاده ، فمات أبناؤه الخمسة . .[1]» .

وهذا كله مخالف لأبسط قواعد التصور الإسلاميّ الذي لا يحمِّل أي إنسان وزر أحد آخر ،لا أبيه ، ولا أمه ، ولا ابنه ، ولا أي أحد كائناً من كان ، فمن عدل الله الذي لا شك فيه ألا يُحاسب أحد على ذنب لم يرتكبه . قال تعالى : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام :١٦٤] .

ثم إن القرآن الكريم يحدّثنا أن آدم تاب إلى الله عن زلته ، وقبل الله توبته ، فقال ـ عزّ وجلّ ـ

ـ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه : ١٢٢] أي :اصطفاه ربه ، فقرّبه إليه ، وقبل توبته ، وهداه إلى الثبات على التوبة ، والتمسك بأسباب الطاعة[2] .

---

(١)صرخات في وجه العصر ، لجلال العشري : ص٣٩ .

(٢)انظر صفوة التفاسير ، لمحمد علي الصابوني .

ب ـ الوجود يسبق الماهية

إن حديث الوجوديين عن «سبق الوجود للماهية» قادهم إلى إنكار الله ـ عزّ وجلّ ـ فكأن الإنسان جاء من العدم، وكأنه لا موجد له ولا خالق، وهو الذي يخلق ماهيته وأفعاله.

وقد عبّر الوجوديون ـ بطائفيتهم: الملحدة، والمسيحية ـ عن هذا بقولهم «إن الإنسان يوجد أولاً، ومن مشروعه الحر الذي يكون عليه وجوده يستطيع أن يختار ماهيته..[1]».

وهذا تصور واضح البطلان والضلال شرعاً وعقلاً كذلك، لأنه لا يُتَخَيَّل أن يصنع أحد شيئاً أو يخترع آلة، من دون أن يحدّد أولاً وظيفتها، والغاية منها، ثم يوجدها على وفق ذلك، فما بالك بالخالق الحكيم العليم؟

إن الإنسان، هذا الكائن الذي خلقه الله تعالى، وصوّره فأحسن صورته، خلقه ليؤدي وظيفة معينة في هذا الكون، لم يخلقه عبثاً، ولذلك منحه من الماهية والقدرة والتكوين ما يمكّنه من أداء الرسالة التي خُلق من أجلها، وعندما أهبطه إلى الأرض، أهبطه إلى أرض مهيّأة لاستقباله، مذلّلة لتصلح له، فهي كذلك خلقت على ماهية معينة، كما وجد هذا الكون كله على ماهية مسبقة.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

ج ـ اعتماد العقل وحده:

والوجودية ـ بكفرها بالله والأديان والأعراف المتوارثة ـ لم تقدّم نظام حياة بديلاً، بل تركت للإنسان الحرية في أن يختار، وحملته مسؤولية هذا الاختيار. وهذا إلقاء للإنسان في بحر التيه، ورثّه القلق، واليأس، والغربة، وهي أبرز سمات الوجودية وأدبها كما عرفت.

أيّ عقل هذا الذي يختار؟ وهل عقول الناس متشابهة؟ هل يُترك تنظيم شؤون الكون والإنسان والحياة إلى عقول الناس وأهوائهم؟ والله تعالى ينفي تعدد الآلهة ـ وهي آلهة ـ لأنها

---

(١) صرخات في وجه العصر: ص٢٨٨.

لا يمكن أن تتفق ـ على حكم واحد :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] أي : لولا أن الله واحد أحد ، وليس في الوجود آلهة غيره ، لفسد نظام الكون لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع(١) .

فإذا كانت الآلهة ـ لو افترض وجودها ، وتعالى الله عن الشّريك ـ لا يمكن أن تتفق على حكم ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النور : ٩١] .

أفيوثق بعقل الإنسان المخلوق الضعيف ـ كائناً من كان ـ أن يحكم الكون ، وينظم شؤون الحياة والإنسان فيه ، من غير حيف ولا جور ولا هوى؟

إن الوجودية ـ في تحكيمها الإنسانَ في شؤون الكون ـ تفتح أبواب الصراع والاختلاف والفوضى على مصاريعها ، فالناس لا يمكن أن يتفقوا على معايير موحدة ، لا بدّ لهم من تشريع سماوي ينظم لهم شؤون حياتهم ، والإنسان عبد لشهواته ، وإذا حُكِّم حكم بهذه الشهوات ، وعلى وفق رغباته وأهوائه .

وعندما نتحدّث ـ نحن المسلمين ـ عن العقل ، ونحترمه ، ونعظّمه ، فإنما ذلك لأنه يقود إلى الإيمان ، إلى معرفة الخالق عزّ وجلّ ، وهو مناط التكليف ، ولأنه منضبط بالضوابط الشرعية .

ومن عجب أن «كيركيجارد» الذي يُزعم أنه يمثل الوجودية المسيحية المؤمنة يرى أن العقل والدين لا يلتقيان «حتى خيّل إليه أنه لا سبيل إلى إثبات حقيقة الإيمان إلا بإنكار منطق العقل . . إن العقل لا يستطيع أن يفسر شيئاً من الإيمان ، ولذا يجب إغلاق فم العقل بقوة . .على الإنسان أن يؤمن بلا عقل . . بل إن الإيمان يزداد كمالاً وسمواً كلما ازدادت معارضته للمنطق والمعقول . .(٢)» .

على حين يقول تعالى في تعظيم العقل وأصحابه : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد : ١٩] أي إنما يعرف آيات الله ، ويدركها ، ويتعظ بها ، أصحابُ العقول . .

د ـ الفردانية : ضخّمت الوجودية من شأن الفرد ، إذ أحلته محلّ الإله الذي أنكرته ، ولا شك أن احترام الفرد ، وتقدير حقوقه وإنسانيته ـ في إطار النظر إليه

---

(١) صفوة التفاسير . .

(٢) صرخات في وجه العصر : ص٣٤ .

opelkang.com

على أنه مخلوق لله ، عبدٌ له ، ملتزم شرعه ـ قيمة كبرى ، ولعل هذا هو هو الوجه الذي قدّره العقاد ـ رحمه الله ـ وأشاد به[١] .

ولكن «الفردانية» المطلقة «تؤدي إلى نوع من النرجسية التي ترتد في كل أمر إلى ذاتها ، وتؤدي إلى تغليب حقوق الفرد على حقوق المجتمع ، فتكون الحياة الخاصة راجحة على الحياة العامة ، وهذا ما انتهى إليه الكاتب الوجودي المعروف كامو[٢]» .

هـ ـ شذوذ طائفة من رموز الوجودية : عُرفت طائفة من رموز الوجودية بالشذوذ والانحراف .

يقول سارتر نفسه عن صاحبته الوجودية الفرنسية المشهورة «سيمون دو بوفوار» : «تعترف بأنها تحب الرجال الضائعين ،والاضطرابات العظيمة ،والمتطرفين في السكر والخدر والوجد[٣]» .

ويدعو ألبيركامو ـ أحد أقطاب الوجودية ـ إلى الانتحار فيقول : «أما وقد فقدت الحياة كل معنى فلماذا لا يلتمس الإنسان الهرب في الانتحار[٤]؟» .

وهذا منافٍ لروح المسؤولية التي يدعي الوجودي حملها ، إذ الانتحار هروب من المسؤولية .

وهذا كير كيجارد نفسه ، الذي قُدِّم على أنه يمثل الوجودية المسيحية المؤمنة ، والذي يعده بعضهم ـ كما ذكرنا ـ أبا الوجودية ،وأول الفلاسفة الوجوديين ، كانت حياته سلسلة من العقد والمآسي والتشرد ، حتى لقد فضّ خطبته من الفتاة التي هام بها ، لأنه لم يشأ أن يتحمل مسؤولية الزواج ، لأن ذلك معناه «أن يحيا حياة اجتماعية يخضع فيها للواجب الذي هو أساسي في حياة المجتمع ، والذي معناه أن ينتظم ، وأن يقف في الصف ، وأن يكون واحداً كالآخرين ..[٥]» .

---

(١) انظر بين الكتب والناس ، للعقاد : ص١٤ .
(٢) المعجم الأدبي لجبور عبد النور : ص ١٩٠ .
(٣) نقلاً عن كتاب «تيار رفض المجتمع» ص١١١ .
(٤) الاشتراكية والأدب ، للويس عوض : ص٢٠٤ .
(٥) صرخات في وجه العصر : ص٤١ .

obeikandi.com

٢ – التصورات الأدبية عند الوجودية

١- يتفق التصور الأدبي الإسلامي مع التصور الأدبي الوجودي في الدعوة إلى الالتزام ، أي في أن يكون أدب الأديب في خدمة المجتمع والناس ، وأن يكون صاحب موقف ، وأن يعرف - كما يقول سارتر - ماذا يكتب؟ ولمن يكتب؟ ولماذا يكتب؟

ولكن الالتزام الأدبي الإسلاميّ شيء مختلف تماماً عن هذا الالتزام الأدبي الوجودي ، فهو التزام قيم الإسلام ، والصدور عنها ، وعن مفهومها عن حرية الإنسان ومسؤوليته ، وليس دعوة إلى حرية متفلتة من الأديان والعقائد ، ولا إلى((الفردانية)) المطلقة على حساب المجتمع .

وإن جميع أجناس الأدب - في إطار التصور الإسلاميّ - ملتزمة ، لا يُعْفَى من ذلك الشعر ولا غيره من فنون القول ، لأن الشعر ضرب من الكلام ، والكلمة - بجميع أشكالها- مسؤولية ، وهي ذات خطر ، فالشعراء قوم من المتكلمين ، وكلّ متكلم محاسب على ما يقول ، مُثاب عليه إن كان حقاً ، معاقب عليه إن كان باطلاً .

ولا يسوغ للشاعر الكذب والافتراء ، ولا الخروج على الحقائق ، أو الغلو المجانب للعقل والمنطق . إن الشعر فن تخييلي ، ولكنه تخييل منضبط بقواعد الشرع والعقل ، وليس كلاماً متفلتاً مُعْفَى من المساءلة والالتزام .

٢- وعلى أهمية المضمون في العمل الأدبي ، وكونه الذي يكشف عن هوية الأدب ، ويحدّد درجة عظمته وخلوده ، لا يجوز إهمال الشكل ولا التساهل فيه على الإطلاق ، ذلك أن الذي يدخل كلاما ماحيّز الأدب هو الشكل الفني وحده . ومضمونٌ من غير شكل فني باهر - مهما كانت قيمة هذا المضمون ونبله - هو عندئذ كلام أشبه بالشعارات السياسية والدعاية الإعلامية ، وقد كانت كذلك بعض الأعمال الأدبية التي كتبها الشيوعيون والوجوديون ،بسبب احتفائهم بالمضمون احتفاء يكون على حساب الشكل أحياناً .

٣ـ إن جميع المعاني التي طرقها الوجوديون في أدبهم هي معانٍ سلبية ،تمثل ضياع الإنسان وحيرته وإحساسه بعبثية الحياة والوجود ، وهي لا تبعث في المتلقي إلا اليأس والتشاؤم ، لأنها إنما تطرح من خلال التصور الوجودي الفاسد ، ولا ينبغي لها أن تطرح إلا من خلال هذا التصور ، وإنه ـ كما يقول الدكتور عبد الرحمن البدوي ـ لإثم ما بعده إثم أن يُنْصَرف عن هذه الموضوعات «إلى أضدادها استرضاء وتملقاً لأهواء الأخلاق أو الدين أو ما إليها من الأوضاع في دنيا الحياة . .»[1] .

ولا مانع أن يتناول الأدب الإسلاميّ هذه المعاني وغيرها ، ولكنه يتناولها برؤية صحيحة ، ويعرضها بشكل إيجابي .

٤ـ إن الأدب الإسلاميّ لا يتعصب لجنس أدبي دون آخر ،وهو يرى أن لكل جنس خصوصيته وجمهوره وأسلوبه في أداء رسالته ، والعبرة أن تصدر هذه الأجناس جميعها عن تصور فكري سليم عن الكون والحياة والإنسان .

وأخيراً نقول : إن الوجودية ـ على ما فيها من الكفر والشذوذ وعلى ما قدمته من التصورات الفكرية والأدبية التي تتنافى مع عقيدتنا وقيمنا ـ وجدت للأسف ـ من أدبائنا ونقادنا ـ من يتبناها ، ويعجب بها ، ويدعو إليها .

(١)الإنسانية والوجودية في الفكر العربي : ص١٣٧ .

ملامح من الوجودية
في الشعر العربي المعاصر

على ما كان في الوجودية من عُوار في القيم ، وفساد في الرؤى والتصورات ، وكفر بالله والأديان ، وجدت للأسف طريقاً إلى أدبنا العربي المعاصر ، واستقبلتها طائفة من أدبائنا ونقادنا ـ على عادة كل ما يأتي من «الخواجا» ـ بالحفاوة والترحاب ، فشرّعت لها الأبواب ، وفتّحت لها النوافذ ، فراح هذا الفكر السرطاني الخبيث يذر قرنه في أدبنا العربي الحديث :

شعراً ونثراً .

راحت طائفة من أدبائنا تقبس منها ـ بوعي أو بلا وعي ـ ثم تفخر بهذا القبس ، وكأنها تشتار العسل ، أو تغترف من النبع الزّلال .

يقول نزار قباني متباهياً بأن حركة الشعر الحر قد ألقحها الفكر الغربي ، وأحبلتها الفلسفات المادية المختلفة ، فالالتزام ابن الماركسية المدلل الذي مر برؤوسنا ، أوائل الخمسينات مرور الدوار المباغت .والوجودية السارترية التي دقت أبوابنا بعنف ، واستطاع سارتر ، وكامي ، وكافكا ، وكولن ولسن أن ينقلوا إلينا عوارض الغثيان والسأم[١] .

ولم يقف الأمر لدى بعض الأدباء والمفكرين العرب عند حد التأثر العارض بهذا السرطان الفكري المدمر ، بل اتخذه بعضهم عقيدة ، وراح يدعو الشعراء إلى اعتناقها . وفي الوقت الذي حرر فيه سارتر ـ فيلسوف الوجودية ـ الشعر من الالتزام ، وقصره على النثر ؛ وجد من بني جلدتنا من هو أكثر حنواً على هذا المذهب ، وشغفا به ، من أهله الذين أنجبوه ؛ فهذا الدكتور عبد الرحمن بدوي يدعو إلى ربط الشعر العربي المعاصر بالفكر الوجودي ، ويسقط عليه إسقاطات غريبة ، فيزعم أن في الفكر الصوفيّ الإسلاميّ ملامح وجودية ، ولذلك يدعو إلى وجودية عربية تقوم على دعائم من التصوف ، ويرى أن دراسة هذا التصوف ذات فائدتين

---

(١) الشعر قنديل أخضر : ص٤٦ .

جليلتين : الأولى أن نقدر هذه المذاهب الصوفية حق قدرها ، ونضفي عليها نوراً وهاجاً من التفسير الوجودي الحديث حتى تتبدى بكل ثرائها وقيمتها الحقيقية .

والثانية : أن يكون في هذه الدراسة - من جانبنا - نوع من الاستفادة والاستلهام ، واتخاذ نقطة البدء في مذهبنا الوجودي العربي الذي نود أن نجعل منه فلسفتنا الجديدة في الحياة والوجود[1] . ثم دعا الدكتور بدوي[2] إلى «الشعر الوجودي» لأن الوجودية - كما نُفِث في روعه - أقرب الفلسفات إلى الشعر ، والشعر أقرب الفنون إلى الوجودية ؛ وذلك لأن الشاعر يخلق عالماً من الوجود قائماً بذاته ، ويملك من الحقيقة قدر ما يملك الفيلسوف في نظر صاحبه ، بل لعل الشعور عند الأول أقوى منه عند الفيلسوف ، فنحن لا نوقن بحقيقة شيء يقيناً كاملاً إلا إذا كنا نحن الذين خلقناه و أبدعناه ، لأننا نشعر آنذاك بأنه جزء من كياننا صادر عنه ، فله من الحقيقة بقدر ما لكياننا . . والفيلسوف غير الوجودي ينظر إلى عالمه كأنه أمامه ، يتأمله بوصفه موضوعاً في ذاته ، ولهذا فإن شعوره بحقيقة هذا العالم أضعف كثيراً من إحساس الشاعر نحو حقيقة عالمه . أما الفيلسوف الوجودي فيتساوى في شعره - من هذه الناحية - مع الشاعر الوجودي ، لأن كلاً منهما يؤسس عالمه ويبدعه . .[3] ثم يقول : ولهذا قلنا في استلهام ديواننا (مرآة نفسي) :

أيها الشعراء ! فلتشاركوا الربّ في فعل الخلق[4]

ثم راح يسطر للشعراء - على طريقة الشيوعيين من قبل - المعاني والأفكار التي يقترح أن تكون موضوعات للشعر الوجودي ، وهي القلق ، الخطيئة ، الندم ، الرذيلة ، الشر ، الموت ، السأم[5] .

وهي موضوعات قد تطرح من خلال التصور الفكري السليم ، ولكن البدوي يبادر إلى حصرها في نطاق التصور الوجودي ، فيدعو إلى عدم تقيد الشاعر في

---

(١)الإنسانية والوجودية في الشعر العربي : ص٩٥ .

(٢)رحمه الله ، وقد تراجع عن هذا كله في أواخر حياته (انظر مقابلة معه في مجلة الحرس الوطني السعودية) .

(٣)الإنسانية والوجودية : ص١١١ .

(٤)السابق : ص١١٢ .

(٥) السابق : ص١١٦ ، ١١٩ .

اختيار موضوعه ـ بأي قيد من قيود الدين أو الأخلاق ، فله أن يطرق أي موضوع يتمشى مع إبداعه الذاتي ، فهو بمعزل عن أحكام الدين والأخلاق ، أو أي تقويم كائناً من كان ، أو بالأحرى هو فوق كل ألوان التعارض العملي الخاص بالسلوك والأخلاق . . بل من الأفضل للشاعر الوجودي أن يختار لفنه موضوعات الشر والرذيلة لأنها هي التي تولد القلق الذي هو المحرك الأكبر للشعر الوجودي . .ومعنى هذا بكل وضوح أنه إذا وَجَد الرذيلة والقبح أو الشر أوفر حظاً في التمكين من الإبداع ، فلا جناح عليه مطلقاً في أن يتخذها ، بل أن يتخذها وحدها موضوعات لخلقه الشعري ، والإثم كل الإثم في الانصراف عن هذه الأشياء إلى أضدادها ، استرضاء وتملقاً لأهواء الأخلاق أو الدين أو ما إليهما من الأوضاع في دنيا الحياة ، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقرر ـ وفقاً للمذهب الوجودي ـ أن هذه المعاني هي الأحرى بأن تكون موضوعات للشعر الوجودي[١] . .

لقد أطلنا في النقل عن الدكتور البدوي[٢] لنرى أية وهدة يريد ان يَحْدُر الشعر العربي فيها ، ومن يك ذا فم مر ، فيصدر عن هذه الفكر المريض ، ويدافع عنه هذا الدفاع الحار ؛ لا يستبعدْ أن يرى مثله الأعلى في فولتير ، وأن يعظم قصائد ديوانه أزهار الشر ، لأنها تمثل الشعر الوجودي خير تمثيل .

يقول : «ولهذا نستطيع أن نعد أزهار الشر ، أكمل نموذج للشعر الوجودي ، فإن ما يميز تناول بودلير لهذه الموضوعات هو أنه اتخذها حالات وجودية ، ذات دلالات وجودية ، وأنه ضمَّها كلّها ، ووحّد بينها ، حتى استطاع أن يجعلها فلسفة وجودية واضحة المعالم[٣]» .

وهكذا يؤمن البدوي بالشاعر المتمرد على المجتمع ، الذي يعارض موضوعات الدين والأخلاق ، وما تعارف عليه الناس من قيم ومثل ، ولا يهتم بغير التعبير عن تجربته

---

(١) السابق : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) رحمه الله الذي تراجع عن هذا كله .

(٣) الإنسانية والوجودية : ١٢٢ ، ١٢٣ .

الوجودية الفردية ولا يعترف بأية قيمة أخرى تتعارض مع إبداعه، فمذهبه الوجودي يفرض عليه «اجتناب الناس، وازدراءهم، وكل ما يلقونه من أحكام[١] . .» .

وغيرة على ملة الكفر الأخرى ـ الشيوعية ـ وانتصاراً لماركس، تصدى محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس لهذه الدعوة الوجودية[٢]، وعدّد لويس عوض بعض المدارس التي تعادي الاشتراكية وتنافيها، كمدرسة الفن للفن، ومدارس الفكر المثالي، ومدرستين أخريين خطيرتين هما مدرسة اللاوعي، والمدرسة الوجودية[٣] . .

ولكن يبدو أن هذه المعارضة لم تكبح جماح التيار الوجودي في الشعر العربي الحديث . يقول أحد الباحثين : «وقد تصدى لمعارضة هذه الدعوة بعض النقاد في مصر، وكان من أبرزهم محمود العالم .ولكن يبدو أن تلك المعارضة لم تقلل من تأثير تيار الفكر الوجودي في الشعر المصري[٤]» إذ يبدو التيار الرافض للعالم والوجود «واضحاً في كثير من قصائد صلاح عبد الصبور وبعض الشعراء الآخرين . وهي قصائد يغلب عليها الموقف التشاؤمي من الوجود والكون، وتفيض بأحزان الإنسان الضائع السأمان الذي يحس بعبث الحياة، وعقم التكرار الرتيب التافه، وضياع ذات الإنسان وفرديته، وعبث الموت، وغموض المصير[٥] . .» .

كما بدت هذه الأفكار الوجودية واضحة لدى كثير من شعراء العراق . وقد أشار الدكتور إحسان عباس إلى بعضها عند دراسته شعر عبد الوهاب البياتي، فلاحظ أنه عندما يصور شخصية «الأفاق المغترب» يقترب كثيراً من المفاهيم الوجودية، إذ تكتشف فيه الإنسان الوجودي كما يراه سارتر، سجيناً في عالم لا يوليه اهتماماً إن لم يحمل له ضغناً وكراهية . إن القلق، وصيحة السجين :

«أنا وحيد كقطرة الماء العقيم» وضياع المسافر بلا حقائب، لا يعرف لنفسه تاريخاً ولا مكاناً ولا أماً، وإن الشعور بالاضطراب الذاتي، وانعدام السببية في الوجود الإنساني . .

---

(١) السابق ١٣٦ .
(٢)في الثقافة المصرية : ١٢٢ .
(٣)الاشتراكية والأدب : ٣٧ .
(٤)تيار رفض المجتمع للدكتور سعد دعيبس : ص١١٧ .
(٥)تيار رفض المجتمع للدكتور سعد دعيبس : ص١٤٩ .

إن كل هذه المعاني لتقرب البياتي مـن المؤثـرات والمفـهومات الوجوديـة تقريبـاً كبيـراً ، ولا يخطئ الدارس رؤية ألفاظ الوجودية وتعبيراتها وصورها في شعره[1] .

ويقع المتأمل في أشعار أدونيس ، وخليل الحاوي ، والبياتي ، وصـلاح عبـد الصبـور ، وبدر الديب ، وعبده بدوي ، وأحمد عبد المعطي حجازي ، وكمال أيوب ، وكثير غـيرهم ، على عشرات الأفكار المرضية الإلحادية ، كالتمرد على الكون والوجود والألوهيـة ، وعبثيـة الحياة ، ولا معقولية الموت ، والضياع في عالم لا يحس به بالانتمـاء ، ومجهوليـة الهويـة ، والتغرب في اللاوطن ، والتشرد في عالم معاد يكـن الكراهيـة والبغضـاء ، ومشـاعر السـأم والضياع والتمزق ، والخوف من المجهول الغامض ، وغـير ذلـك مـن أضـراب هـذه المعـاني والأفكار[2] . .

يتحدث أدونيس عن ظواهر التمرد الإيجابية في الشعر الحر ، فيذكر أنه يتمـرد علـى المضمون إيجاباً بقبول مخاطرة التساؤل بدلاً من تقليدية القبـول . وإذا كـان القبـول رضـى وطمأنينة ويقيناً فإن التساؤل تمرد ورفض وشك . وبقبول محنة الغربة والانفصال واعتنـاق المطلق في الزمن والموت والأبدية . فليست القصيدة الجديـدة شـكلاً مـن أشـكال التعبـير وحسب ، وإنما هي كذلك شكل من أشكال الوجود[3] . .

تلك هي الوجودية سرطاناً خبيثاً مدمراً لا يخفى فساده على من أزهرت في قلبه ذرة من إيمان ، أو استروح لحظات أفياء اليقين بثابت مـن الثوابـت . إنـها أحـد أمـراض الفكـر الغربـي التـي راح يتمخـض عنـها عقـل الإنسـان القلـق المضطـرب ، الـذي كفـر بتشـريع السماء ، فراح يشرع لنفسه ، ثم يجحد في غده ما شرعه في يومه .

الوجودية مرض الإلحاد ، وفقدان الثقة والأمان واليقين ،مرض المجتمع المادي المتدهور ، وقد استطاعت ـ على هذا العُوار ـ أن تتسرب إلى بعض القلوب الغلف ، وأن تصغـي إليـها بعض الآذان ، فنفثت سموماً فـي الشـعر العربـي المعـاصر ، وخـدَّت فـي وجهـه أخـاديدَ شوَّهته ، وأسهمت في تغريبه .

---

(١)عبد الوهاب البياتي في الشعر العراقي الحديث : ص٥٠ .

(٢)انظر نماذج من أشعار هؤلاء القوم في كتاب «تيار رفض المجتمع» ١٤٩-١٦٩ . وفي كتاب «ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي المعاصر» لأحمد محمد العزب : ١٠٧ -١٠٨ .

(٣)نقلاً عن كتاب «ظواهر التمرد الفني» ص١٢١ .